من معين
التربية الإسلامية

منير محمد الغضبان

مكتبة المنار

الطبعة الثانية
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

حقوق الطبع محفوظة

شارع الفاروق - بجانب جمعية المركز الإسلامي
مكتبة المنار هاتف ٨٣٦٥٩ - ص.ب ٨٤٢ الزرقاء - الأردن

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

من معين التربية الإسلامية نستقي هذه المفاهيم .

فالتربية التي تسمى ـ الحديثة ـ اليوم تختلف في فلسفتها اختلافاً تاماً عن التربية الإسلامية ، وإن اشتركت في بعض النتائج معها . وقد تكفل البحث الأول بإيضاح هذا المفهوم .

والقرآن الكريم هو مصدر التربية الأول في الوجود ، وقد نهلنا من معينه دروس التربية في أحد ، كما وردت في سورة آل عمران . وهو مدار البحث الثاني .

والرسول ﷺ هو إمام المربين . فأخذنا قبساً واحداً منه وهو حديث في تربية الطفل أنس بن مالك رضي الله عنه ، وحديث آخر في تربية الطفل عمرو بن سلمة .

إنها نقاط من بحر التربية الإسلامية الزاخر الذي يملأ عبابه الوجود . غير أنا أزهد الناس في بضاعتنا العظيمة .

التربية الحديثة على ضوء الإسلام

الفلسفة والمفاهيم

بين يدي البحث :

لا بد من إيضاح فكـرة أساسية في موضوع التربيـة ، تفسر جميع جوانبـه وفروعه ، وتلقي الأضواء عـلى تنائجه وتطبيقاته .

هذه الفكرة هي أنه ما من نظريـة تربوية أو اجتماعيـة أو اقتصادية أو سياسية إلا وانبعثت من عقيدة ، عقيدة تحدد نظرها في الكون والحياة والإنسان ، وتتشعب عنها جميع أنظمة الحياة فيما بعد .

وإذا نظرنا هذه النظرة الأساسية منـذ بداية الحـديث لانستغرب بعدها أن نعقد هذه المقارنة بـين الإسلام والتربية الحديثة ، بصفة أن للإسلام عقيدته الخاصة ، تختلف عن العقيدة التي انبثقت منها التربية الحديثة . فللتربية الحديثة فلسفتها ، وللإسلام عقيدته . والتربية الحديثة نظـام في التربية يمثـل الفلسفة التي انبثق منها ، وللإسلام نظامه في التربية المنبثق من عقيدته . قد تتشابه جزئيات في النظامين ، فلا يجوز أن يدفعنا هذا التشابه إلى اللهاث وراء كل جديد لنثبت أن الإسلام يحتويه أو أنه يحتوي الإسلام .

وحتى لايبدو في كلامنا غرابـة يحسن أن نسوق ما قدمه الأستاذ أبو الحسن الندوي من أقوالٍ لأساطين التربية في القرن العشرين حول هذا المفهوم حيث يقول :

(وهنا ثلاثة شواهد لثلاثة من قادة التربية والتعليم : وأئمة الفكر في العالم الغربي المعاصر :

يقول سير برسي نن الذي يحتل الصدارة بين خبراء التعليم في بريطانيا في مقال له كتبه لدائرة المعارف البريطانية : « لقد سلك الناس مسالك مختلفة في التعريف بالتربية ولكن الفكرة الأساسية التي تسيطر عليها جميعاً هي أن التربية هي الجهد الذي يقوم به آباء شعب ومربوه لإنشاء الأجيال القادمة على أساس نظرية الحياة التي يؤمنون بها . إن وظيفة المدرسة أن تمنح للقوى الروحية فرصة التأثير في التلميذ ، تلك القوى الروحية التي تتصل بنظرية الحياة ، وتربي التلميذ تربية تمكن من الاحتفاظ بحياة الشعب وتمديدها إلى الأمام » .

وإن جون ديوي الذي كان تأثيره في نظام التعليم الأمريكي أكبر من تأثير أي رجل في هذا العصر ، يقول في كتابه ــ الديمقراطية والتربية ــ :

« إن الأمة إنما تعيش بالتجديد ، وإن عمل التجديد يقوم على تعليم الصغار بطرق متنوعة تكون من الأفراد الأميين ورثة صالحين لوسائلها ونظرية حياتها ، وتصوغهم في قالب عقائدها ومناهج حياتها » .

ويقول البروفسور كلارك :

« مهما قيل في تفسير التربية فمما لامحيص عنه أنها تسعى للاحتفاظ بنظرية سبق الإيمان بها ، وعليها تقوم حياة الأمة ، وجهاد في سبيل تخليدها ، ونقلها إلى الأجيال القادمة » .

كما يسوق لنا من جانب آخر رأي أحد أئمة التربية السوفييت كوفيرين إذ يقول :

« إن العلم الروسي ليس قسماً من أقسام العلم العالمي ، إنه قسم منفصل قائم بذاته مختلف عن سائر الأقسام كل الاختلاف . فإن سمة العلم السوفيتي الأساسي أنه قائم على فلسفة واضحة متميزة ، إن التحقيقات العلمية لا تزال بحاجة إلى أساس علومنا الطبيعية الفلسفة المادية التي قدمها (ماركس) و (انجلز) و (لينين) و (ستالين) . وإننا نريد أن نخوض وفي أيدينا هذه الفلسفة ــ في معترك العلم الطبيعي ــ ونصارع جميع التصورات الأجنبية التي تناهض فلسفتنا المادية بكل حزم وقوة ») .

ويبلغ الحذر في تميز التربية للأمة أن أمريكا ندمت كثيراً يوم أخذت بنظام التربية الانجليزي مع أن الأصل القومي واحد ، والأصل العقائدي كذلك . كما قال الأستاذ الأمريكي الدكتور كونانت في كتابه التربية والحرية :

(إن عملية التربية ليست تعاطٍ وبيع وشراء وليست بضاعة تصدر إلى الخارج أو تستورد إلى الداخل . إننا في فترات من

التاريخ خسرنا أكثر مما ربحنا باستيراد نظرية التعليم الإنجليزية والأوربية إلى بلادنا الأمريكية) .

* * *

فتربية كل أمة إذن منبثقة من عقيدتها ، وعندما نتحدث عن التربية الحديثة فلا بد أن ندرسها على ضوء الإسلام ونخضعها لقيمه ومفاهيمه . فالمسلم يأخذ من معطيات التفكير البشري في العلوم الإنسانية بحذر ، وبالقدر الذي لايتعارض مع أصول عقيدته . كما أنه يأخذ وهو عارف بصير بما يأخذ ، ويدع وهو عارف بصير بما يدع . لا يضيره أن يأخذ الحكمة أنى وجدت فهو أحق الناس بها .

والذين يعملون اليوم في ميادين التربية في مجتمعنا أحد نوعين :

الأول : وهم الذين يحملون عواطف إسلامية صادقة فيقفون أمام معطيات التربية الحديثة مبهورين ، ويحاولون جاهدين أن يقحموا مفاهيم التربية الحديثة في الإسلام ولو عن طريق لَيّ أعناق النصوص . أو أنهم يحملون على التربية الحديثة بحجة أنها لا وجود لها في الإسلام ، ولا حاجة لنا بها لأنها آتية من الغرب ويحاربون دعاتها وأساليبها ووسائلها .

هذا وإن اختلف الموقفان لهذا الفريق ، لكن الموقفين صادران عن عاطفة إسلامية صادقة .

الثاني : وهم الذين تأثروا بكل معطيات الحضارة الغربية فرأوا بها حلاً جذرياً لمشاكلنا ، ومما تأثروا به كذلك التربيـة الحديثة • ويحقدون بنفس الوقت على الـذين يودون تمييز الإسلام عنها بحجة أنهم عقبة كأداء في سبيل التقدم •

وسأحاول إن شاء الله في حديثي الموجز عن التربية الحديثة أن أقدمها على ضوء الإسلام ومبادئه سائـلاً الله عز وجل أن يقيني العِثار والزلل إنه سميع مجيب •

وإن كنت أعترف سلفاً أنها مهمة أكبر مني • إنما حسبي أن أشق الطريق •

(ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) •

أولاً ـ الطبيعة الإنسانية وفلسفة التربية :

النظرة إلى الإنسان جزء من العقيدة التي يعتنقها المرء • وقبل أن نصل إلى نظرة التربية الحديثة للإنسان نرى لزاماً علينا أن نستعرض الشوط الذي مرت به هذه النظرة في عالم التربية حتى وصلت إلى ما استقرت عليه اليوم • لأن التربية الحديثة تحمل ردود الفعل على النظرات السابقة • وما لم نعرف ـ بشكل سريع ـ هذه المفاهيم لا نستطيع أن نستوعب الموقف الكامل لهذه التربية من الإنسان •

١ ـ نظر بعض الفلاسفة والمفكرين إلى الطبيعة الإنسانية على أنها شيء يقسم إلى جسم وعقل • فالإنسان له جسم محدود بالمكان • أما العقل فليس له هذه الحدود • بل هو أقرب إلى الروح منه إلى شيء آخر • ومثّل هذه الثنائية الفلسفة الإغريقية ؛ وعلى رأسها سقراط وأفلاطون •

يقول أفلاطون : الإنسان روح في علاقة موقتة مع جسم مادي ، وإن هذه الروح قد وجدت قبل أن يوجد هذا الجسم • وإنها ستبقى بعد فنائه • ووظيفة التربية على هذا الأساس هي تقوية الروح حتى تتغلب على شهوات الجسد وتسترد مكانها وسيطرتها عليه •

وأدى هذا المفهوم إلى التمييز بين الفنون الميكانيكية أو العمل اليدوي من جهة وبين ما يتعلق بالفنون الحرة كتفسير الأدب وعلم المنطق والموسيقى والرياضيات • ومن أجل هذا كان تعليم العمل اليدوي محتقراً أو مختصاً بالطبقات الدنيا من الناس عن طريق التكرار وتقليد الآخرين بينما كان تعليم الفنون الحرة محصوراً بطبقة الفلاسفة والعلماء •

وتنج عن هذين المفهومين تلك الهوة بين العلم والحياة • أو بتعبير أدق بين الإنسان بحاجاته الجسدية المادية وبين البيئة التي يعيش فيها • وعلى طالب العلم أن يلتحق بعالم المثل ويحيا في دنيا الأفكار ليصبح إنساناً مرموقاً في مجتمعه •

٢ ــ وتسلل هذا المفهوم الإغريقي إلى مسيحية الكنيسة وأضافت إلى الإنسان فكرة الخطيئة الموروثة إذ تقول فلسفة المسيحية التقليدية بمبدأ الخطيئة الأصلية • وأن الإنسان فقد قدرته على الوصول إلى الحقائق بارتكاب آدم للزلة الكبرى • وهذه الزلة لم تقتصر عليه وحده ، وإنما تعدته إلى سائر أبنائه من البشر أجمعين ، ولذلك كان عليهم أن يمروا بخبرة معينة حتى يستطيعوا التغلب على هذه الوصمة • ومن أجل أن يدخل الإنسان في ملكوت الله ويصبح جزءاً من ذات الإله لابد من إحراق شهواته وتحطيم متطلبات جسده • ولهذا كان الرهبان يعتزلون الحياة والنساء وملذات الدنيا قربى إلى الله كما يقول

جل شأنه عنهم : (... ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ..)

٣ ــ ونادى توماس هوبز في القرن السابع عشر بفهم آخر للطبيعة الإنسانية تقوم على أساس الطبيعة القاسية الشريرة وسماها بحرب الجميع ضد الجميع . فالإنسان ذئب تجاه أخيه الإنسان . ولا يحل مشكلة الحياة إلا الضغط والقوة والسلطان . بينما نادى معاصره ــ لوك ــ الانكليزي بأن العقل الانساني عندما يحمله الطفل إلى المدرسة يكون كالصفحة البيضاء ، وتقوم المدرسة بواجبها من ملء جوانبه بالتراث الإنساني المتراكم ، والخبرات البشرية العديدة . وحرمت هذه النظرية الطفل من كل كيان حيوي له ، وحرمته من دوافعه ومن شخصيته الإنسانية التي تتميز أول ما تتميز بالحركة والحياة .

٤ ــ لكن الفلسفة الفرنسية المتمثلة بجان جاك روسو في القرن الثامن عشر فرقت بين الطبيعة والبشر فأعادت بجرة قلم كل خير للطبيعة ، أو بتعبير أدق لخالق الأشياء . وكل شر للناس الذين يكونون أداة الانحراف بالطفل وقد مثل هذا قوله : (كل شيء خير إذا ما جاء عن طريق خالق الكون . وكل شيء يصيبه الفساد والانحلال إذا ما مسته يد البشر) .

وهو إن أعطى التربية مفهوم التنمية للمواهب الفطرية لا الافراغ في اللوح الأبيض ؛ غير أنه جنح في إبعاد طفله عن البشر

لدرجة تجعله أقرب ما يكون من صفاته إلى الحيوان الذكي ، وجعل جل همه في تربية حواسه ، ويمكن أن نطلق على نتائج هذا الفهم للطبيعة الإنسانية في مجال التربية باسم التربية السلبية.

٥ ــ نظرية الغرائز : وقد قسمت الطبيعة الإنسانية إلى مجموعة من الغرائز مثل حب الذات والمقاتلة والغريزة الجنسية . وهي متأثرة بنظرية دارون عن أصل الأنواع ونشوء الإنسان كما يقول عنها ديوي :

إنها قامت على أساس التشابه بين غرائز الإنسان وغرائز الحياة الدنيا ، وأصبح معنى هذا لكي نعرف السلوك الإنساني على حقيقته يجب أن نعرف وندرس السلوك الحيواني ، واتجه العلماء بذلك إلى دراسة هذا السلوك الحيواني لعلهم يستنتجون منه القوانين والنظريات الخاصة بالسلوك الانساني في دراسة موضوعية متركزة على ما يظهر من هذا السلوك .

وكان هدفهم من هذه الطريقة أن يربطوا علم النفس بالعلوم الطبيعية الأخرى بحيث لا تدخل في دراسة العوامل الذاتية التي لا يمكن ضبطها والتحكم بها .

٦ ــ وظهرت في هذا الصدد نظرية السلوكيين الذين رأوا أنه للحصول على نتائج موضوعية تماماً فيما يختص بالطبيعة الإنسانية ووظيفتها ، يجب التركيز على السلوك السافر ، وعلى هذا يتميز المذهب السلوكي بصفة عامة باتجاهين :

الأول : هو تطبيق الأسلوب العلمي بمبناه الميكانيكي على ميدان السلوك والتخلص من التفسيرات الغيبية التي تعني رفض التفسير الديني القائم على الغيب والوحي من الله .

الثاني : استخدام الحيوان في البحوث والتجارب بقصد دراسة وفهم السلوك عند الإنسان .

وهكذا حرم السلوكيون الإنسان من شعوره وعقله ، ونظروا إليه نظرة ميكانيكية آليـة تتركز حول المثيرات والاستجابات والأفعال المنعكسة وقوانين الترابط . وكانت نظرة السلوكيين بذلك إلى الطبيعة الإنسانية نظرة جزئية اجتزأت عاملاً واحداً من الكل ، ونظرت إليه على أنه الكل نفسه .

٧ ــ النظرية النفعية : وهي التي تقيس الأمور بنتائجها وما تحدثه من ألم ولذة . فما كان لذيذاً فهو المفيد والنافع ، وما كان مؤلماً فهو الضار والشر .

وقد انتقدها ديوي بعنف حين قال :

(ونظرية النفعيين الخاصة بتطابق الأفعال مع نتائجها هـي خرافة نخدع بها أنفسنا ، فهي تنكر في الواقع أن الوقت وثيق الارتباط بالأخلاق حيث يمثل الوقت جوهر الصراع الخلقي) .

٨ ــ الطبيعة الإنسانية في التربية الحديثة :

كان لنظرية دارون عن التطور وأصل الأنواع أثرها أيضاً في النظرة للطبيعة الإنسانية . وكان مبدأ التطـور يتضمن أن

الأنواع ليست نهائية جامدة بل إنها بالعكس من ذلك تتطور وتتغير باستمرار • وهكذا يتخلص التغير ويتحرر من سلطان اللامتغير • فالطبيعة الإنسانية إذن متطورة متغيرة تسعى على الدوام إلى تكييف نفسها حسب الظروف الاجتماعية المختلفة ، وأصبحت التربية على هذا الأساس عملية نمو مستمر •

وخلصت هذه المبادىء إلى أن الطبيعة الإنسانية التي يخرج بها الوليد البشري مستقبلاً للحياة مرنة يمكن تشكيلها في أشكال وأنماط مختلفة حسب الأهداف التي نضعها للعملية التربوية • والبيئة الاجتماعية متغيرة متطورة أيضاً مما يميز المجتمعات الإنسانية في العصر الحديث • وتغير البيئة الاجتماعية أساسي حتى تتاح الفرصة للطبيعة الإنسانية أن تنمو إلى أقصى حد لها •

إذن فالصفة الأولى للطبيعة الإنسانية في التربية الحديثة هي التطور والتغير • أما الصفة الثانية فهي التكامل • وكما يقول عنها ديوي :

وهذه الطبيعة الإنسانية لاتنقسم إلى جزئيات صغيرة أو كبيرة باختلاف الأسماء التي تعطى لها • ولكنها كل متكامل في جميع أجزائه ، ومتفاعل يؤثر ويتأثر كل جزء فيه بالأجزاء الأخرى• وهذا التفاعل أساسي في إكساب الطبيعة الإنسانية النمط الذي نشهده بها • فالتفاعل يكون بين طبيعة إنسانية متغيرة وبين بيئة اجتماعية متغيرة متطورة أيضاً •

وهذه النظرة التكاملية للطبيعة الإنسانية وتفاعلها مع البيئة الاجتماعية والمادية قد جمعت بين العناصر الذاتية الداخلية في الفرد وبين العناصر الخارجية الموضوعية في البيئة . وكانت هذه النظرة المجالية أساساً للنظر إلى الطبيعة الإنسانية نفسها على أنها كل متكامل لا يتكون من جسم يضاف إليه عقل . ولكن الطبيعة الإنسانية أبعد من ذلك . فالكل أكثر من مجموع أجزائه ؛ أي أن الطبيعة الإنسانية هي أكثر من مجرد إحساسات جسمية وتكوينات عقلية . وهكذا تنظر إلى الطفل في التربية على أنه كل متكامل تعنى به هذه التربية من النواحي الجسمية والعقلية على حد سواء . فهو يتعلم بجسمه كما يتعلم بعقله لأن أحدهما لا يوجد بدون الآخر .

مقارنــة

بهذه النظرة الجديدة إلى الطبيعة الإنسانية يمكن القول أن التربية الحديثة خطت خطوات حاسمة وحساسة في فهم الإنسان على أنه كل متكامل وليس تنفاً وتفاريق ، وعملت على تربيته ككل عقلٍ وجسم • ونستطيع أن نلاحظ المدى الكبير للتطور البشري في فهم الانسان على هذا الأساس من خلال المقارنة التي عقدها الدكتور النجيحي في كتابه ــ فلسفة التربية ــ بين التربية القديمة والحديثة إذ يقول :

في ميدان أهداف التربية كانت الأهداف ترمي إلى تدريب العقل الإنساني دون ما نظر إلى المناشط التي تتصل بالناحيــة الجسمية ، وأصبحت البرامج الدراسية عبارة عــن المواد التي تعمل على تدريب هذا العقل وشحذه حتى يستطيع أن يسيطر على الشخصية الإنسانية بتمامها ، وأصبح كل ما يمت إلى النواحي الجسمية من مناشط خارج البرامج الدراسية ولا يمت بصلة إليها• واتجهت هذه البرامج بصفة خاصة إلى دراسة الفلسفة والمنطق والرياضيات على أنها الوسائل الفعالة في تدريب هذا العقل •

وأصبح النظام المدرسي مشكلة تواجه المدرسين • فحيث أن العقــل والجسم نوعان مختلفان فإنهما قد يسلكان مسالك

متعارضة تعوق بعضها الأخرى • وحيث أن الطفل لايستطيع أن يذهب بعقله فقط ، فلا بد أن يحمل معه جسمه • وحيث أن هذا الجسم له مناشط مختلفة يقوم بها فمن الطبيعي أن يشغل المدرس في كثير من الوقت بقمع هذه المناشط الجسمية أو تحديدها حتى يصل إلى سكون هذا الجسم ، وإلى خضوعه خضوعاً تاماً للعقل حتى يستطيع أن يقوم بوظيفته خير قيام •

وأخذت العقوبات البدنية تحتل مكانها في الميدان التعليمي إذ أصبح ينظر إلى التلميذ على أنه سلبي يتلقى المعلومات التي يلقيها عليه المدرس بالطريقة الإلقائية في سكون وهدوء • فإذا ما حاول أن يحرك جسمه قسا عليه المدرسون بالعقوبات البدنية المختلفة ، وأصبح التلميـذ النموذجي هو الذي يجلس صامتاً ساكناً حتى يستطيع العقل أن يستوعب المعلومات التي تلقى عليه• وتنج عن هذه النظرية أيضاً أن أصبحت مادة التربية مجموعة من المعلومات والمهارات قد توصل إليهـا أجدادنا في الماضي ، وأصبح عمل المدرسة هو مجرد تحصيل وتوصيل هذه المعلومات إلى أذهان الجيل الجديد • وكان على التلاميذ أن يكونوا مطيعين مؤدبين حتى يستطيعوا استقبال كل ذلـك • وأصبح الكتاب المدرسي ذا مكانة مقدسة إذ هو الذي يحتوي على نتائج عقول الأجداد وعصارة أفكارهم • وازدادت أهمية المدرس لأنه هو الوسط الذي تنتقل فيه هذه الأفكار إلى التلاميذ وهكذا فرضت

على التلاميذ مستويات ومعلومات خارجة عنهم وضعها الكبار وحاولوا فرضها على الصغار الذين لم يصلوا إلى مرحلة النضج بعد • وبذلك تركنا التلميذ بخبراته واستعداداته وجئنا له بخبرة الكبار وطرق الكبار •

هذا بالنسبة للتربية التقليدية القديمة • أما بالنسبة للتربية الحديثة فقال : (وأصبح لهذا المفهوم المتعلق بالطبيعة الإنسانية في التربية الحديثة تنائج على التعليم فالطفل كائن حي يمارس خبرات معينة ، ويتفاعل مع بيئة معينة كجزء لا يتجزأ من تيار الحوادث والمشاعر والأفكار والأشياء•فالطفل يتعلم كلما أصبحت ميوله واتجاهاته أكثر تنظيماً في أن يختار بين المثيرات التي تضغط عليه كل يوم في حياته أن يستجيب لهذه المثيرات التي اختارها وأن يتشربها دون غيرها، ويصبح التعلم بذلك عملية وظيفية تساعد على تجدد الحياة وتنميتها •

وعلى هذا يجب أن يشترك الطفل بكل انفعالاته وعاداته ودوافعه واستجاباته الجسمية في المواقف التعليمية المختلفة • وأصبح المنهج الدراسي لا يتكون من المواد التي تدرب العقل وتنميه فحسب وإنما أصبح يتضمن كل الخبرات التعليمية التي تؤدي إلى نمو النواحي المختلفة المكونة لشخصية الطفل حيث يستشهد الدكتور النجيحي في نهاية التلخيص برأي الفيلسوف التربوي جون ديوي القائل :